



هنا الصراط المستقيم، فمن يريد العبور إلى الفردوس؟ هنا سجّل السفاح صفحة جديدة في سجّل انتصاراته، عشق لون الدماء، فخطب الرعاع من أذنا به: امضِ قيس! هنا جرى آخر استفتاء حول ذبح العصافير، وذهب عشرات القتلة إلى صناديق الاقتراع، يمسكون السكين بيد، ورقاب العصافير باليد الأخرى، وصوت الجميع بالنحر... في بلد السيد الواحد، الملك الواحد، الحاكم الواحد، ليس من الصعب أن تكتشف نتيجة الاقتراع قبل التصويت.

كم تضحكننا هذه الديمقراطية! بل كم تبكيننا إلى حدّ الجزع! انبحوا هذا العصفور، إنّه قليل الأدب، طويل اللسان، سلفيّ الانتماء، عميل متآمر ضد أمن الوطن وسيد الوطن، يغرد بصوت عالٍ، نشاد، يغطي على صوت الرصاص القادم من بركان الحقد، لتسقط كلّ العصافير، وليبقى سيد الغناء، سيّد الفناء، سيد الدماء ...

ترى ما هي العوامل النفسية التي تدفع رئيساً حاكماً إلى استصدار أمر باغتيال العصافير؟ إلى إصدار مرسوم يقطع الأكسجين عن أبناء شعبه؟ وأيّ عقدة تجعله لا يرى في المرأة سوى نرجسية ناركسيس، ولا يسمع سوى أصدا صوته، ولا يطرب لغناء سوى غناء الشهرزادات الجعفرية؟؟ ولا يسمع بأشرطة طرب لم يسجلها بصوته الرخيم، ويأمر أجهزة استخباراته أن تصدر كلّ الأشرطة من الأسواق المحلية بتهمة التآمر ضد الحكومة وضد أمن الدولة وضد السلام الوطني

... لماذا يكره الأسياد كلّ الأصوات إلا صوتهم؟ لماذا يحقدون على أيّ جناح يرفّ في سماء هذا الوطن الفسيح؟ لماذا يطاردون البلايل حتى سور الصين العظيم؟ لماذا يغتالون عصفير الوطن ويسحلون جثثهم النازفة احتفالاً بالنصر؟ وأيّ نصر لصياد ماكر على عصفور ضعيف قابع في عشه الآمن ينتظر حبة القمح من فمّ أمّه الهائمة؟ جاؤوا له بمبادرة سلام ظنّ أنّها ستحمل إليه حبة القمح المنتظرة، والشهد والكورن فليكس الأمريكي، فوجد نفسه بعد أربعة عشر شهراً يأكل كسرات الخبز اليابس المتساقط من موائدكم العامرة، أصابه جوع تاريخي، وغرق في حزن تاريخي، مازال يعاني منه منذ أربعين عاماً، أربعون عاماً نداد فقراً، نداد قهراً، نداد موتاً، ونداد فوق كلّ ذلك إصراراً أن نموت لنكون سمام الأرض العطشى، لنكون نسغ الحياة لوطن يسكننا ولا نسكنه... فجأة صحونا بعد أربعين عاماً من النوم عطاشاً نرد أنهار الحياة لنروي ظمأ السنين، لنجد أنّ مياه العاصي وبردى قد تخضبت بالحرمة، تسأل الجمع ما سرّ هذا اللون يطغى على تضاريس الوطن؟ بعضهم قال: هذا دم العصفير، وبعضهم قال هذا دم الوطن، وبعضهم قال هذا دم الحرية، وكلّهم كانوا صادقين ... عصفير القبير حلّقوا أسراباً مهاجرة إلى رفاقهم الذين سبقوهم يوم مجزرة الحولة، ويوم مجزرة إدلب وجبل الزاوية ويوم مجازر عندان وأتارب، ويوم بابا عمرو والخالدية ودير بعلبة، ويوم الزباني ورنكوس وقورية،،،، وتتوالى أسراب الطيور المهاجرة، دون أن تلتقط لهم عدسات الفضائيات صورة واحدة، دون أن يذكرهم الذاكرون لحظة واحدة، دون أن يسأل سائل: لماذا تذبح العصفير والسماء تتسع لهم جميعاً؟؟ هي المعركة بين العصفور والسكين ... قديمة أزلية، لكنّ نظرة واحدة إلى الفضاء الرحب، إلى ملايين الطيور المحلّقة، كلّ صباح مشرق، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، تجعلنا ندرك أنّ المعركة تنتهي دوماً بانتصار العصفير ... قلنا أيام المجازر السابقة: يا عالم أنجدنا، يا عرب أغيثونا، يا مسلمون أقيّلونا، لكن اليوم لن نقول سوى: يا الله خذْ من دماننا حتى ترضى، إن لم يكن بك علينا غضبٌ فلا نبالي، غير أنّ عافيتك أوسع لنا، لك العُتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ...

المصادر: